

# اهتم لذاتك

عظة للقديس باسيليوس الكبير (اسقف قيصرية الكبادوك)

## (أ) حياته<sup>(١)</sup>:

القديس باسيليوس، أسقف قيصرية الكبادوك<sup>(٢)</sup>، هو أحد أعظم آباء الكنيسة الجامعة الملقبين بالآباء الكبادوك.

ويُلقَّب بلقب "الكبير" «ὁ Μέγας Βασίλειος»<sup>(٣)</sup>. وينتسب القديس باسيليوس إلى عائلة تقيّة جداً، وثرية، في آسيا الصغرى. جدته تُدعى ماكرينا، وأمّه تُدعى أماليا، أما أبوه فيحمل نفس الاسم "باسيليوس". كما يُعد القديس غريغوريوس أسقف نيصص هو الأكثر شهرة بين اخوته وهم: بطرس أسقف ساباستيا، واخته القديسة ماكرينا.

وُلد القديس باسيليوس في قيصرية كبادوكية عام ٣٣٠م، حيث بدأ دراساته الأولى في مدرسة للخطابة بالمدينة، وتلقّى علمي الفصاحة والخطابة

<sup>١</sup> انظر عرضاً مفصلاً عن حياة القديس باسيليوس الكبير وكتاباتهِ وأفكارهِ في كتاب: الأب إلياس كويتز المخلصي؛ القديس باسيليوس الكبير، حياته - أبحاث عنه - مواعظه، سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم (١٢)، المكتبة البوليسية، ط١، ١٩٨٩.

<sup>٢</sup> تقع قيصرية الكبادوك الآن في أواسط تركيا، ومساحتها ٣٧٠٠٠ ميل تُغطي أجزاءً من ١٠ محافظات تركية حالياً، ويبلغ عدد سكانها خمسَ مجموع سكان تركيا. ومسيحيو الكبادوك قديماً هم أحد كنائس المقطعات في الشتات التي وجه إليها تحيته القديس بطرس في رسالته الأولى. وقد اختفى اسم كبادوكيا من على الخرائط الحديثة الآن. (انظر: دراسات في آباء الكنيسة، أحد رهبان برية القديس مقاريوس، دار مجلة مرقس، شبرا، ط٢، فبراير ٢٠٠٠، ص٣١٩).

<sup>٣</sup> Quasten, J., *Patrology*, Vol. II, Westminster, MD., 1992, P. 204

على يد ليبانوس<sup>(٤)</sup> الفيلسوف والخطيب الأنطاكي، الذي درَّبه على بلاغة التعبيرات اليونانية، وقد استقى ق. باسيلوس منه عشق الأدب اليوناني والذي قاده وهو في سن العشرين للذهاب إلى أثينا، مركز التعليم ووطن الفنون والآداب<sup>(٥)</sup>. وقد أكمل دراساته بعد ذلك في القسطنطينية وأثينا، وهناك درَّس الفلسفة والخطابة والنحو والفلك والطب، وتعرَّف بالقديس غريغوريوس النيزينزي، المُلقَّب بـ(الناطق بالإلهيات). وقد عاد إلى بلده سنة ٣٥٦م، وعمل لفترة قصيرة بالخطابة، إلا أنه ترك العالم وكل أمجاده وطاف في البراري لكي يستطيع أن يتعمق في الحياة الرهبانية. وقام بزيارة نساك معروفين في سوريا وفلسطين ومصر وفي بلاد ما بين النهرين. إلا أنه فيما بعد رجع إلى وطنه واعتزل وجمع حوله طائفة من الرهبان في منطقة بونطس حيث أسس ديراً. وهناك زاره القديس غريغوريوس النيزينزي سنة ٣٥٨م، وقد ألفاً معاً كتاباً يحوي مقتطفات من كتابات أوريجينوس. وفي سنة ٣٦٤م رُسم القديس باسيلوس كاهناً بيد الأسقف يوسابيوس القيصري، ثم بعد ذلك خلفه كأسقف لقيصرية بعد ستة سنوات من هذا

---

<sup>٤</sup> فيلسوف وخطيب يوناني ولد عام ٣١٤م في أنطاكيا/ سورية، وتوفي عام ٣٩٣م. له عدة خطب ورسائل تعتبر مصدر غني بمدنا بمعلومات سياسية واجتماعية عن حياة أنطاكيا الاقتصادية، والجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية إبّان القرن الرابع الميلادي.

ونجد أنه بعدما بدأ ليبانوس في تعليم الشباب بالقسطنطينية ونيكميديا، ذهب إلى أنطاكيا عام ٣٥٤ حيث أصبحت مدرسته مشهورة. ولقد اعتمد ليبانوس سواء في التعليم أو في الكتابة على المؤلفين الكلاسيكيين اليونانيين، وحاول الحفاظ على التقليد اليوناني أمام نهوض روما، وكصديق للإمبراطور يوليانيوس كان يعيش ويكتب كما لو لم تكن المسيحية موجودة. وقد رسمت أعماله صور ذات أهمية بالغة عن التعليم المعاصر. انظر:

“Libanius”: *Encyclopedia Britannica*, Ultimate Reference Suite. Chicago: Encyclopedia Britannica, 2008

<sup>5</sup> Frederick Morgan Padelford, *Saint Basil: Essays on the study and use of poetry by Plutarch and Basil the Great*, University of Washington, Yale Studies in English 15, 1902, p. 34.

التاريخ، بل وصار رئيساً لأساقفة منطقة بونطس، وكان هذا انتصاراً كبيراً أمام الرياح الأريوسية، وقد تعرّض مع المسيحيين للضيق والاضطهادات التي وقعت عليهم من الإمبراطور الأريوسي فالينتيوس وظل صامداً مُشدّداً رعيته ومدافعاً عن الإيمان الأرثوذكسي حتى تتيح بسلام، في سن الخمسين، عام ٣٧٨م. وتُعيد له الكنيسة القبطية يوم ٦ طوبة والكنيسة اليونانية يوم ١ يناير.

### (ب) كتاباته:

تُصنّف أعماله وكتاباته إلى ما يأتي:

أولاً كتابات عقائدية:

- + ضد أفنوميوس، وهو كتاب مؤلف من ثلاثة أجزاء، وفيه يؤكّد على وحدة الجوهر بين الأقانيم الثلاثة. وقد كُتِبَ سنة ٣٦٤م.
- + عن الروح القدس وقد أرسله إلى أمفيلوخوس، ودافع فيه عن ألوهية الروح القدس.

ثانياً الأعمال الرهبانية والنسكية:

- + الأخلاقيات أو القواعد الأخلاقية؛ ويتألّف الكتاب من ٨٠ وصية أخلاقية تعتمد على نصوص مختلفة من العهد الجديد.
- + مجموعة موسّعة من الأسس التي تخص الحياة الرهبانية وهي تتألّف من ٥٥ فصل، حول المبادئ العامة للرهبنة. وهذا العمل قد كُتِبَ من سنة ٣٥٩ حتى سنة ٣٦٢م.
- + مجموعة مبادئ تتألّف من ٣١٣ فصل، وهي تختص بالحياة اليومية للرهبان.

### ثالثاً مقالات:

+ ترك لنا القديس باسيليوس ٢٤ مقالاً عن موضوعات عقائدية وأدبية  
ومديح لفضائل الآخرين

### رابعاً أعمال تفسيرية:

+ عن أيام الخليقة الستة  
+ شرح المزامير

### خامساً رسائل:

+ حُفِظَتْ ٣٦٥ رسالة تحمل بعضها اسمه، والبعض الآخر منسوب له.  
وهي تعالج موضوعات متنوعة؛ عقيدية، تعليمية وتفسيرية.

### سادساً ليتورجيا:

+ وضع لنا القديس الإلهي المشهور والمعروف بالقديس الباسيلي.

أما العظة، التي بين أيدينا، فتعتبر عمل تفسيري عميق للآية التي وردت  
في (تث ١٥ : ٩). وللأسف لا نعلم متى ألقاها القديس باسيليوس. ونلاحظ في  
العظة المشار إليها، كما في عظته "ضد الذين يَغْضَبُونَ"، أن باسيليوس  
يستند في تفسيره لسلوك الإنسان وتصرفاته، على علم الأنثروبولوجي  
الهيليني<sup>(٦)</sup>، مُشَدِّداً على ضرورة الرضوخ والامتثال لمشيئة الرب والسير  
نحوه<sup>(٧)</sup>.

---

<sup>٦</sup> إن القراءة المتأنية لكتابات القديس باسيليوس، نجده أنه هضم الأدب اليوناني الكلاسيكي برمته، إذ أنه أثناء دراسته في  
أثينا اطلع على كل كتابات الكلاسيكيين تقريباً مثل أيسخولوس، وبلوتارخوس، وأفلاطون، وسقراط، ... إلخ. ونجد أيضاً  
أنه، كثيرًا، ما يقتبس منهم بعض الفقرات. فعلى سبيل المثال، اقتبس القديس باسيليوس في عمله "رسالة إلى الشباب في

في الحقيقة، إن معرفة النفس هي علم يصعب على الإنسان اتقانه، لأن من طبيعة الإنسان أنه يميل إلى الاهتمام بأمور الغير والفحص عن عيوب وأخطاء الآخرين؛ ويهمل التبصّر بأمور نفسه واكتشاف نقائصها وردائلها. ولذلك، يشدد ق. باسيليوس قائلاً: إنه ينبغي علينا أن لا ننتبه إلى ما حولنا أو إلى ما نمتلكه من أمور مادية بل إلى أنفسنا فقط؛ التي هي ذاتنا. فالرؤية المحدقة للأشياء تمدنا بقوة الإرشاد والتوجيه نحو الصالحات العتيدة، والإدراك الجيد لطبيعة النفس البشرية يعتبر الركن الأساسية لفهم طبيعة الله.

### (ج) النص اليوناني والترجمات المختلفة له<sup>(٨)</sup>:

النص اليوناني الأصلي لهذه العظة منشور في مجموعة الآباء الذين كتبوا باليونانية والمعروفة بـ "مجموعة باترولوجيا جريكا - PG" بالمجلد رقم (٣١) من عمود رقم ١٧٣٣ إلى ١٧٤٤.

J.P. Migne 31, 1733-1744

حقق ونشر رودبيرج S.Y. RUDBERG هذا النص اليوناني في ستوكهولم في سنة ١٩٦٢ تحت عنوان:

S.Y. RUDBERG, *L'homélie de Basile de Césarée sur le mot "Observe-toi toi-même"*. Édition critique du texte et étude sur la tradition manuscrite, Stockholm, 1962.

---

كيفية الاستفادة من الأدب الكلاسيكي"، ثلاثة فقرات من الشاعر الإغريقي هسيودوس من عمله "الأعمال والأيام"، ٢٨٥ وما يليها". انظر:

EDWARD R. MALONEY, *St. Basil the Great, to students on Greek Literature*, American Book Company, 1901, P. 40

<sup>7</sup> Π. Χρήστου, Μεγάλου Βασιλείου έργα, "Ἐλληνες Πατέρες τῆς Ἐκκλησίας, Θεσσαλονίκη, τόμ. 1<sup>ος</sup>, σ. 29

<sup>8</sup> *Clavis Partum Graecorum*, ed. M. Geerard, Vol. 2, Brepols-Turnhout, pp.

للنص ترجمة لاتينية لروفينوس، أشار إليها هولجو M. HULGO في مجلة  
الرهبان البندكتيين "RBén 64" التي نشرت في دير ماردسو (بلجيكا)  
سنة ١٩٥٤ تحت عنوان:

M. HULGO, *Les anciennes versions latines des homélies de Saint Basile*,  
P. 129-132.

وللنص أيضاً بعض الشذرات في ترجمة أرمنية أشار إليها دريزين  
DRIESSEN في لوفان سنة ١٩٥٣ بمجلة لوميزايون "Le Muséon 66" تحت  
عنوان:

I.W. DRIESSEN, *Le recueils Manuscrits arméniens de S. Basile*,  
Louvain, 1953, P. 73.

وكما توجد ترجمة انجليزية حديثة منشورة في مجموعة "آباء الكنيسة"  
"Fathers of the Church" التي تنشرها الجامعة الكاثوليكية بواشنطن:  
Fathers of the Church, *St. Basil "Ascetical Works"*, translated by Sister  
M. MONICA WAGNER C. S. C., Vol. 9, The Catholic University of  
America Press, Washington 17, D. C., 1962, pp 431-446.

ولقد تبقي لنا ترجمة عربية قديمة لهذه العظة. ولقد أشار كلاً من العالمين  
جراف GRAF في "تاريخ الأدب المسيحي العربي" و تروبيو TROUPEAU في  
"كتالوج المخطوطات العربية، الجزء الأول: المخطوطات المسيحية"، إلى  
المخطوطات التي تحتويها:

GRAF (G.), *Geschichte der christlichen arabischen Literatur I*, (Studi e  
Testi 118), Città del Vaticano, 1944, p. 321.

TROUPEAU G., *Catalogue des manuscrits arabes, Ière partie*,  
*manuscrits chrétiens*, Bibliothèque Nationale, Paris, 1972, n. 133.

أما الترجمة العربية هذه فقد تمت عن النص اليوناني المحقق والمنشور  
في سلسلة آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانية ΕΙΕ والتي تصدرها

دار النشر «Το βυζαντίον» بتسالونيكي، اليونان، المجلد رقم ٦،  
سنة ١٩٧٣، ص ٢١٤ - ٢٤٥.

## نص العظة

١- إن الله عندما خلقنا وهبنا ملكة الكلام حتى نكشف أفكار قلوبنا لبعضنا بعضاً، وبسبب طبيعتنا الاجتماعية، فإن كلاً منا يُشاطر قريبه، مُظهراً ما يبطنه في القلب من أفكار وكأنه كنز من الكنوز. فلو كنّا قد عشنا بأرواحاً مجردة، لكنّا قد تواصلنا ببعضنا البعض مباشرة بواسطة الأفكار؛ ولكن بما أن نفوسنا محتجبة في ستر الجسد، فإنها تكون في حاجة للأفكار والتعابير لتُفصح عن مكنونها الداخلي. وحينما نُعبّر عن أفكارنا من خلال نبرات صوتية للإفصاح عن مكنوناتها، فهي تعبر الهواء، محمولة في الكلام، كأنما على قارب، تصل من القارئ إلى أذن السامع؛ فإن لاقت هدوءاً وسكوتاً عميقاً، رست في آذان الفاهمين كما على المرافئ الآمنة الهادئة. ولكن، إذا لاقت زوبعة، فإن ضجيج السامعين سيَهَبُ بدلاً منه، وحينئذ يعود الفكر أدراجه مُنحلاً في الهواء. إذن، اصنعوا هدوءاً، بصمتكم، أثناء كلامي، فلربما يبدوا لكم شيء نافع ومفيد.

إنّ كلام الحق عسير التعقب، ولذا فهو يهرب بسهولة من غير اليقظين، طالما أن الروح قد دبر أن يكون مُختصر ومقتضب، حتى يوضح بكلمات قليلة ومقتضبة معانٍ جمّة، وبسبب إيجازها يكون سهل أن تُحفظ بالذاكرة. فالميزة الفطرية للكلام هي أن لا تختفي معانيه بالعبارات أو

يمتلئ بالألفاظ المفرطة أو بالأمر الفارغة. وأما الآية التي قرأت، منذ برهة، من سفر موسى، فلا شك أنكم تذكرونها جميعاً لأنكم تتصتون بإصغاء، هذا إن لم تكن قد تاهت عن آذانكم لأجل قصرها. وهذه الآية هي هكذا: "انتبه لذاتك كي لا يكون أي فكر مخفي في قلبك إثماً" (تث ١٥: ٩س)<sup>(٩)</sup>.

من السهل علينا، نحن البشر، أن نقترف الإثم في فكرنا. ولذلك بالتحديد، فإن الذي شكّل، وحده، قلوبنا<sup>(١٠)</sup>، يعلم أن أكثر خطايانا تتم عن طريق رغبتنا ونيتنا، ولقد حدّرنا أولاً أن نضبط ذواتنا بالطهارة. إننا نرتكب الإثم بسهولة تامة، وهذا يستوجب منا قسطاً وافراً من الانتباه والعناية. فكما أن أطباء الأجسام المتيقظين يشددون ضعفاء البنية بالإرشادات الواقية، هكذا هو راعي الجميع وطبيب النفوس الحقيقي، الذي يعرف أننا سريعاً ما نزلق نحو الخطية، قد سبق فحدّرنا باحترازات جدّ قوية. لأن إتمام أعمال الجسد يتطلّب زماناً ومشقة وفرصة ملائمة وعوداً من سائر الأعضاء، بينما حركات الفكر فتتولد فوراً وتحدث بلا جهد وتتشكّل بسهولة وكل وقت يوافقها.

لا يندر أبداً أن نرى، بعضاً من المغرورين والمتغطرسين لكرم أخلاقهم، ومن لهم صورة التواضع على ظاهريهم، ومن يجلسون وسط من يمدحهم من أجل تقواهم، يركضون بفكرهم نحو الخطيئة سريعاً ويخفقه قلب

<sup>٩</sup> هذه هي ترجمة الآية بحسب النص السبعيني:

"πρόσεξε σεαυτῷ μη γένηται ρῆμα κρυπτον εν th=| καρδία σου" ، الذي اقتبسه ق. باسيليوس، كعادة باقي الآباء، أما بحسب الترجمة البيروتية المتداولة فهي: "احترز من أن يكون مع قلبك كلام لنيم"

<sup>١٠</sup> انظر مز ٢٢: ١٥

خفية. ينظرون بخيالهم موضوع أشواقهم ويتصورون أحداث غير لائقة، وفي الداخل، في معمل قلبهم السري، يصوروا اللذة بجلاء، وهناك في داخلهم يقتربون الإثم الذي يظل مجهولاً لكل "حتى يأتي الذي سيُنير خفايا الظلام، ويظهر آراء القلوب" (١كو٤: ٥).

"انتبه لذاتك كي لا يكون أي فكر مخفي في قلبك إثماً"، "كل مَنْ ينظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (متى٥: ٢٨). وبسبب أن أعمال الجسد يعوقها الكثير، فإن مَنْ يُخطئ بالقصد يرتكب الخطيئة بسرعة توازي سرعة الأفكار. ولأننا نقترف الخطيئة سريعاً، أعطانا الله دواءً سريع الفعالية، إذ شهد وقال: "انتبه لذاتك كي لا يكون أي فكر مخفي في قلبك إثماً" (١٥: ٩س). ولكن الأولى بنا أن نعود إلى مستهل هذا الخطاب.

٢. "يقول: انتبه لذاتك". إن كل حيوان له، بحسب الطبيعة من الله الذي خلقه، جميع العُلل الضرورية لحفظ وجوده. وإذا أمعنت النظر فإنك ستجد أن معظم الحيوانات غير العاقلة<sup>(١١)</sup> لم تتعلم<sup>(١٢)</sup> أن تتبعد عن كل ما يضرها، بل تتجذب بالطبيعة إلى الاستمتاع بكل ما يعود عليها بالنفع والفائدة. لذلك، فالله الذي يرشدنا<sup>(١٣)</sup> ويعلمنا، قد أعطانا هذا المثال العظيم، حتى أن ما تأتيه هذه الكائنات بدافع الغريزة، نأتيه نحن بإرشاد العقل، وما يتم للحيوانات غير العاقلة بلا مشقة، يُنجز لنا نحن بأعمال الفكر؛ وحتى نحافظ أيضاً بحرص على ما غرسه الله فينا من مبادئ،

<sup>١١</sup> غير ناطق - بلا عقل

<sup>١٢</sup> يقصد ق. باسيليوس أن البهائم تحجم غريزتها مبتعدة عن كل ما يؤول عليها بالضرر.

<sup>١٣</sup> المعنى الحرفي للفعل "παιδεύων" هو: "مَنْ يُؤدّب/ يُؤرّي/ يُهذّب/ يُدرب/ يُثَقِّف/ يُعلم ويهتم بالصغار"

هاربين من الإثم، كما تتجنب الحيوانات غير الناطقة عن العلائف السامة،  
تأقن إلى البر، كما تبحث تلك عن غذائها في المراعي الخصيبة. "اهتم،  
إذن، لذاتك"، حتى تكون قادراً على التمييز بين ما يقودك للضرر وبين ما  
يقودك إلى الخلاص.

إن الاهتمام بالذات يعني أمرين؛ الأول: التحديق بالعيون الجسدية إلى  
الأشياء المنظورة، والثاني: توجيه البصيرة، بقوى النفس، إلى التأمل في  
الأمر غير الجسدي. فإن زعمنا أن هذه الوصية مُلقاة على قدرة العينين  
لكان ذلك برهاناً على أنها فوق الطاقة. لأنه كيف يتسنى للمرء أن ينظر  
بعينه إلى كل كيانه؟ لأن العين ذاتها لا يمكنها أن ترى نفسها. فهي لا  
تبلغ إلى الهامة ولا تعرف ما هو الظهر، ولا تعرف أيضاً كيفية توافق  
الأحشاء في الداخل. فيكون إذن القول بأن وصايا الروح القدس مستحيلة  
وفوق الطاقة، هو إنعدام للتقوى.

بقي الآن أن نفهم ما تتضمنه هذه الوصية باعتبار أنها موجهة إلى قدرة  
العقل. "اهتم لذاتك"؛ أعني أن تلاحظ ذاتك من جميع النواحي، أن تكون  
بصيرة نفسك يقظة لحماية ذاتك، أن تجوز وسط الفخاخ؛ فالعدو قد نصب  
فخاخاً مخفية من كل جهة. أن تراقب بكل حرص أي شيء حتى "تخلص  
مثل الظبي من الأشراك ومثل العصفور من الحبائل"<sup>(١٤)</sup>. فالظبي، يصعب  
قنصه بالأشراك وذلك لحدّة بصره، وأما العصفور، فعندما يأخذ حذره،  
فبخفة جناحيه يرتفع إلى علو شاهق بعيداً عن خطر الصيادين. فاحذر أن

تبدو أقل حرصاً على ذاتك من سائر الحيوانات غير العاقلة، كي لا تعثر في تلك الفخاخ، فتغدو غنيمة الشيطان، أسيراً، كي تفعل مشيئته<sup>(١٥)</sup>.

٣. "اهتم، إذن، لذاتك"؛ أعني لا تلاحظ ما تملكه، أو ما هو حولك، لكن لاحظ ذاتك فقط. لأننا نحن أنفسنا شيء، وما هو تحت حوزتنا أو ما يحيط بنا هو شيء آخر. لأن لنا نفس وعقل وقد صُوِّرنا على مثال صورة خالقنا<sup>(١٦)</sup>. فما نملكه هو الجسد وحواسه، وما يحيط بنا هو الأموال والأشغال وسائر احتياجات الحياة.

فما معنى هذه الآية إذن؟ إنها تعني ألا تهتم بالجسد ولا تسعى في طلب ما يطيب له، بكل الطرق الممكنة؛ أي الصحة والجمال ولذة الشهوات وطول العمر، ولا يغررك المال والمجد والسلطة، ولا تأبه كثيراً بمشغوليات الحياة الزائلة، فتظن أن شأنها عظيم، ولا تصب اهتمامك عليها، لكن "اهتم، إذن، لذاتك"؛ أعني اهتم بنفسك، زينها واعتن بها، حتى بدأك، تمحو عنها كل وسخ قد لطمَّحها الإثم به، لتتقيها تماماً من كل وصمة قد لوثتها بها الخطيئة، زينها وابهجها بكل جمال الفضيلة. افحص ذاتك؛ من تكون أنت، واعرف ما هو جوهر طبيعتك: فجسدك قابل للفناء، وأما نفسك فهي خالدة. واعلم أن لنا حياتين: حياة تتعلَّق بالجسد وهي سريعة الزوال، وحياة أخرى تخص النفس لا يعترها فناء.

انتبه، إذن، لذاتك ولا تلتصق بالفانيات على أنها خالدة، ولا تحتقر الأبديات على أنها سريعة الزوال. ازدري بالجسد لأنه فانٍ واهتم بنفسك فهي

<sup>١٥</sup> انظر آتي ٢: ٢٦

<sup>١٦</sup> انظر تك: ١: ٢٦

خالدة. راقب ذاتك بكل دقة ووضوح حتى تعلم كيف تمنحهما ما يفيدهما؛ فللجسد القوت واللباس، وللنفس تعاليم التقوى؛ أعني السيرة الصالحة وممارسة حياة الفضيلة ومداواة ألم الشهوات. لا ترفّه الجسد ولا تسع بافراط وراء التخمّة "لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد، وهذان يُقاوم أحدهما الآخر" (غلاص: ١٧)، فاحذر أن تجلب، وأنت مُنكب على تسمينك للجسد، زمام السيادة لما هو أحمطُ قدرًا ومنزلة. لأنه كما في كفتي الميزان، إن ثقلت أية كفة وزناً، أضحت الثانية بالفعل دونها وزناً، وهذا هو شأن الجسد مع الروح، فإشباع الواحد يجعل الآخر يتضائل؛ فإن اشتهى الجسد الملذات وأُصيب بالتخمّة من فرط السمنة، فلا بد للعقل عندئذٍ أن يصير واهناً وعاجزاً فيما يخص قدرته. ولكن، عندما تكون النفس معافية وبالهديز في الصالحات ترتفع إلى السمو الذي يلائم جوهرها، فحينئذٍ يضمحل ما تعود عليه الجسد.

٤- إهذه الوصيه بعينها تلائم الضعفاء والأقوياء على حد سواء. فالأطباء يوصون المرضى عندما تحلّ بهم الأمراض أن يهتموا بأنفسهم وبذواتهم، وأن لا يهملوا شيئاً مما يعود عليهم بالشفاء. كذلك الكلمة، الذي هو طبيب نفوسنا، يشفي النفس التي لوثتها الخطية بهذه المعونة المتواضعة.

"اهتم، إذن، لذاتك" حتّى توفّق بين نوعية سقطتك وكيفية مداواتها. فإن كانت خطيئتك عظيمة وشريرة، فأنت بحاجة ماسّة إلى ممارسة سرّ الاعتراف، وذرف دموع مرة، وأسهار متواصلة، وأصوام لا تنقطع. فقط اهتم لذاتك، لتدرك مرض وصحة نفسك. لأن كثيرين من المصابين بأسقام عضالة، لا يعرفون البتة أنهم مرضى، بسبب تغافلهم الشديد. فعظيمة إذن، تلك الفائدة التي يجتنيها الأصحاء من هذه الوصية، فهي تشفي المرضى

وتصون مَنْ هو في كامل صحته. إن كلاً منا نحن المتعلمين للكلمة يكون خادم واحدة مِنْ تلك المهن التي أوصانا بها الإنجيل. لأنه في البيت العظيم، والذي هو الكنيسة لا توجد آنية متعددة الألوان؛ مِنْ ذهب أو فضة أو خشب أو خزف<sup>(١٧)</sup> فحسب، بل هو يضم كذلك شتى المهن. ففي بيت الله "الذي هو كنيسة الله الحي"<sup>(١٨)</sup> يوجد صيادون ومسافرون ومهندسون وبنائون ومزارعون ورعاة ومصارعون وجنود، وهذه الآية الوجيزة سوف تلائم جميع هؤلاء موضحة لكل واحد منهم ما يجب أن يكون عليه مِنْ الدقة والغيرة عند القيام بعمله. أنت صياد أرسلك الرب الذي قال: "هتذا مرسل ... كثيرين من القانصين فيقتصونهم عن كل جبل"<sup>(١٩)</sup>. راقب بكل عناية حتى لا تقلت منك فريسة واحدة، فتقود إلى المخلص أولئك الذين صاروا وحشيين بسبب الرذائل، مادمت مُمسك بكلام الحق. أنت مسافر على مثال ذلك الذي كان يصلي: "ثبت خطواتي" (مز ١١٨: ١٣٣). "اهتم، إذن، لذاتك" كي لا تتيه عن الطريق، أو تميل يميناً أو يساراً، بل سر في الطريق الملوكي.

أيها المهندس، ضع أساس الإيمان راسخاً الذي هو يسوع المسيح<sup>(٢٠)</sup>.  
أيها البنّاء، انظر إلى ما تبنيه كي لا يكون خشباً أو عشباً أو قشاً بل  
"ذهباً أو فضةً أو حجارة كريمة"<sup>(٢١)</sup>.

<sup>١٧</sup> انظر آتي ٢: ٢٠

<sup>١٨</sup> انظر آتي ٣: ١٥

<sup>١٩</sup> إر ١٦: ١٦

<sup>٢٠</sup> انظر اكو ٣: ١١

<sup>٢١</sup> انظر اكو ٣: ١٢

أيها الراعي، انتبه جيداً ألا تهملُ أمراً من واجباتك الرعائية. وما هي تلك الواجبات؟ إنها اهتداء الضال، وتضميد الجريح، وشفاء المريض. أيها الحارث، أعزق حول التينة غير المثمرة وقدم لها كل ما يمكن أن يساعدها على الإثمار<sup>(٢٢)</sup>.

أيها الجندي<sup>(٢٣)</sup>، "اشترك في احتمال المشقات لأجل الإنجيل" (٢ تيم ١: ٨)، حارب المحاربة الحسنة<sup>(٢٤)</sup> ضد أجناد الشر الروحية<sup>(٢٥)</sup>، وضد أهواء الجسد، احمل سلاح الله الكامل<sup>(٢٦)</sup>، ولا ترتبك بأعمال الحياة حتى يتسنى لك أن تُرضي ذلك الذي جنّدك<sup>(٢٧)</sup>.

أيها المجاهد، انتبه لذاتك، كي لا تتعدى نواميس الجهاد، لأنه "لا يُكلّل أحد إن لم يُجاهد قانونياً" (٢ تي ٢: ٥). تشبّه ببولس الرسول الذي جاب الأقطار وجاهد وضرب<sup>(٢٨)</sup>. وأما أنت فاحرص، كمصارع محنك، ألا تغض النظر عن نفسك. صن بساعديك أعضاء جسدك الرئيسية. اجعل نظرك شاخصاً نحو خصمك. وفي طرق جهادك حدّق إلى الأمام. وهكذا أركض حتى تأخذ الجعالة<sup>(٢٩)</sup>. صارع في الحرب مع الأعداء غير المنظورين.

<sup>٢٢</sup> انظر لوقا ١٣: ٨

<sup>٢٣</sup> انظر ٢ تي ٢: ٣

<sup>٢٤</sup> انظر اتي ١: ١٨

<sup>٢٥</sup> انظر إفا ٦: ١٢

<sup>٢٦</sup> انظر إفا ٦: ١٣

<sup>٢٧</sup> انظر ٢ تي ٢: ٤

<sup>٢٨</sup> انظر اكو ٩: ٢٦

<sup>٢٩</sup> انظر اكو ٩: ٢٤

لأن كلمة الله لا يريدك أن تكون في حياتك مُنطرحاً على الأرض أو نائماً، بل أن تكون مُتيقظاً وساهراً على حماية نفسك.

٥. إن هذا اليوم لن يسبح لي أن أقص كل مهن العاملين بإنجيل المسيح وأن أُبين قوة هذه الوصية، وكيف أنها توافق الجميع. "اهتم لذاتك"؛ أعني أن تكون يقظاً وأن تستشير في أمورك، أن تراقب ما هو في الوقت الحاضر وأن تتوقع أي شيء قد يطرأ عليك. ولا تفتقد بتراخيك ما هو بين يديك الآن ولا تخاطر بآمالك بما ليس هو موجود وبما سوف يحدث، إن أمكن، كأنه قد صار في قبضة يدك. أليس أمر بديهي أن يتفشى هذا الداء بين الشباب، وهم لعدم معرفتهم يظنون أن ما يرجونه قد صار في حوزتهم. فإنهم، عندما ينعمون بالطمأنينة وسكون الليل ينسجون لأنفسهم بالخيال أوهاماً باطلة لا قوام لها، وينتقلون بسرعة الفكر إلى هذه التخيلات؛ فيسقطون تحت وطأة غرور الحياة، وزيجات عظيمة، ونسل كريم، وشيخوخة متأخرة، والكرامة من الكل. ولكن، إذ أنهم لا يستطيعون التوقف عند هذه الآمال، يأخذهم الزهو، حاملين بالوظائف الدنيوية العالية بين البشر. بينون البيوت الجميلة والشاهقة، ثم يجمعون هناك غلالهم في أهراء تخيلية، ويضيفون لها مواشي وعدداً وفيراً من العبيد، الرئاسة، وقيادة الشعوب، والجيوش والحروب، والانتصارات، وحتى الملك عينه. وبعد أن يحلّقون فوق هذه الأشياء جميعاً بخيال أفكارهم الفارغة، يظنون، بسبب حماقتهم، أنهم ينعمون بما يرجونه كأنهم ظفروا به وأمسى تحت أقدامهم. إن هذا هو داء النفس المريضة البطالة، التي تحلم بأمور كهذه بينما يكون الجسد مُتيقظاً واعياً.

إن قول الكتاب هذا يقمع عجرفة العقل وضجيج الأفكار الجامحة، ويكبح، كأنما بلجام، تقلب الأفكار وعدم ثباتها، ويُنذر بتلك الوصية العظيمة والحكيمة قائلاً: "انتبه لذاتك". لا تحلم بما هو غير موجود، بل اجعل ما هو حاضر في سبيل منفعتك وخيرك. وأظن أن واضع الناموس، كي يستأصل منا ألم الشهوة هذه، قد استخدم هذا التحريض. لأنه سهل على المرء أن يبحث بفضول عن أمور الغير من أن يفكر في أموره الخاصة. وخشية أن نتوجع بألم الشهوة هذه يقول لنا: كف عن التفتيح في مساويء غيرك، ولا تعط فرصة لأفكارك حتى تبحث عن أسقام الغير بل بالأحرى "انتبه ذاتك". أعني أن توجه بصيرة نفسك نحو فحص ذاتك. فما أكثر الذين، حسب قول الرب، "ينظرون القذى الذي في عين أخيهم، وأما الخشبة التي في عيونهم فلا يفتنون لها" (مت ٧: ٣). فلا تكف، إذن، عن فحص ذاتك، إن كانت سيرتك حسب وصية الرب. لا تنظر بانتباه إلى الأمور الخارجة التي حولك، ولا تنقب لتعثر على عيب غيرك، مثل الفريسي المتكبر المتبجح، الذي جاء ليزكي نفسه، وازدرى بالعشار<sup>(٣٠)</sup>. لا تقطع عن محاسبة نفسك، ربما قد أخطأت برغباتك، أو أن لسانك قد سبق فكرك. أو لعل شراً صدر عنك. فإن وجدت في حياتك آثاماً كثيرة (وستجد بلا ريب لأنك بشر) ردد كلمات العشار: "يا الله، ارحمني أنا الخاطيء" (لو ١٨: ١٣).

"انتبه لذاتك". فهذه الكلمة سوف تكون لك كمرشدٍ صالحٍ يذكرك بحقيقة الأمور الدنيوية عندما تكون متمتعاً برغد العيش، أو عندما تجري كل حياتك كجدول عذب بصفاء. ولكن، عندما تُطوَّق بظروف صعبة،

<sup>٣٠</sup> انظر لو ١٨: ١١

حينئذٍ تترددُ هذه الكلمة في قلبك حتى لا تسقط في الغرور المنتفخ (المتبجح) من فرط الانخداع ولا تسقط من فرط القنوط في كآبة بشعة. هل تتباهى بالغنى؟ أم تتفاخر بأسلافك؟ أم تبتهج بوطنك وبالجمال الجسدي وبالتبجيل الذي تتاله من الجميع؟ "انتبه لذاتك" لأنك مائت؛ "لأنك تُراب، وإلى تُرابٍ تعود" (تك ٣: ١٩). انظر إلى الذين سبقوك واختبروا مثل هذه الافتخارات. فأين هم الذين تبوأوا المناصب المدنيّة؟ أين هم الخطباء؟ أين هم منظمو الأعياد؟ أين هم ذوو الجياد المُعدّة للسباق، أين هم القادة، أين هم حكام الولايات والطفاة؟ أليسوا جميعاً غباراً ورماداً؟ أليس الكل صار باطلاً؟ أو ليست آثار حياتهم قد انحصرت في قليل من العظام؟ انحنى داخل القبور، لعلك تقدر أن تميّز بين من هو العبد ومن هو السيد، بين من هو الغني ومن هو الفقير. فرّق، إن كان بمقدورك، بين الملك والأسير، بين القوي والضعيف، بين الجميل والقيح. وحالما تدرك جوهر طبيعتك فإنك لن تشمخ بعد قط، بل عندما تتبه لذاتك ستدرك ذاتك.

٦. هل أنت من نسبي وضيع وبلا صيت، فقير من بين الفقراء لا ديار لك ولا وطن، أم أنت سقيم الجسم، تفتقر إلى قوتك اليومي، وتتشعر من ذوي السلطان، وتخاف وتخجل من الجميع بسبب بؤس حياتك؟ "لأن الفقير، كما يقول الكتاب، لا يواجه انتهازاً" (أم ١٣: ٨س) (٣١). فلا تياس من نفسك ولا تطرح كل رجاء بعيداً عنك، لأنك لا تملك في هذه الحياة شيئاً من الموجودات التي يطمح في امتلاكها كل إنسان، بل اسمو بنفسك عاليًا

<sup>٣١</sup> أما في الترجمة البيروتية المتداولة فهي: "أما الفقير فلا يسمع انتهازاً".

إلى ما قد سبق وأعدده لك الرب من الصالحات، وما هو مُذخر لك في المستقبل بحسب وعده.

فأولاً: أنت إنسان، وأنت وحدك من بين الكائنات الحيّة الذي جُبلَ على صورة الله<sup>(٣٢)</sup>. أفلا يكفيك هذا، إن فكرت بتعقل، أنك قد جبلت بيدي الله، خالق الكل؟ وثانياً: بما أنك قد صرت على صورة خالقك، أفليس بمقدورك أن تتشبهه بالملائكة بسيرتك الصالحة؟ فلقد وهبك الله نفساً عاقلة تدركه بواسطتها، وبفكرك تبصر بوضوح، طبيعة الكائنات، وتجنّي ثمر الحكمة الشهي. أفلم تستنبط الفنون، وتؤسس المدن، ألم تبلغ إلى جميع ما هو ضروري لا بل إلى ما يُعدّ من سبل التمتع والترفيه؟ أفلم تشق في البحار سُبلاً سهلة بفضل فطنتك؟ ألا يمد البر والبحر يد العون إلى ما تقتقر إليه حياتك؟ أليس لأجلك يُظهر الهواء والسماء ومحافل النجوم كل ما فيه من نظام؟ فلماذا، إذن، أنت صغير النفس، لأن جوادك بلا لجام فضي؟ ولكن لأجلك تسكب الشمس نورها عليك بلا انقطاع طول النهار. ليس لك أشعة من الذهب والفضّة، ولكن لك القمر الذي ينير لك بأنواره الغزيرة. أنت لم تمتطي المركبات المصفحة بالذهب، إنما لك قدمان، فهما مركبتك التي ترافقك. فلماذا، إذن، تغبط أولئك الذي يمتلكون الثروة، ومع ذلك يفتقرون إلى أقدام غيرهم حتى يبرحون من مكان إلى مكان؟ لا ترفد على سرير عاجي، ولكن لك الأرض التي هي أثمن من العاج، ولك الراحة العذبة في حضنها، والنوم السريع الذي لا تعكره الهموم والقلق. لا تجلس تحت مظلة ذهبية، إنما لك السماء التي تشع بجمال نجومها الفائق الوصف. كل هذه هي أمور بشريّة؛ ولكن ما يفوق هذا كثيراً هو: أنه

<sup>٣٢</sup> انظر تك ٢: ٧

لأجلك صار الإله بين البشر، وأعطاك انسكاب الروح القدس، إبادة الموت واضمحلال سلطانه، منحك رجاء القيامة والوصايا الإلهية التي تصيرك في حياة الكمال، أرشدك إلى الطريق الذي يقودك إلى الله بواسطة الوصايا، ورثتك ملكوت السموات<sup>(٢٣)</sup>، وكللك بأكاليل العدل المُعدَّة للذين لا يحجموا عن أن يكابدوا التعب من أجل نوال الفضيلة.

٧. لو كنت تتنبه لذاتك جيداً، فإنك ستجد أن تلك الخيرات حولك بل وأكثر منها؛ وستمتع بما هو بين يديك دون أن تغتم لما تفتقر إليه. وحيثما وُجدت هذه الخيرات، فإن هذه الوصية سوف تمدك بمعونة عظيمة. فعلى سبيل المثال: هل تملك الغضب على أفكارك ودفعتك إلى التفوه بألفاظ بذية وإلى اقتراف أعمال وحشية وشريرة؟ فإن انتبهت لذاتك فلسوف تخمد الغضب كما يكبح جواد هائج، وستلجم لسانك ولن ترفع يديك على مَنْ أثار سخطك. وأيضاً، إذا ما هاجت الشهوات الرديئة بداخلك وهوت بنفسك إلى اللذات، فإن إنتبهت لذاتك، وتذكرت أن هذا الأمر الذي يبدو لك الآن عذباً، سينقلب فيما بعد إلى مرارة العلقم، وأن الوجد الذي يجسدك الآن، الذي هو نتاج تلك الشهوات الرديئة، ستتولد عنه دودة سامة تأكل بدننا، وتذيقنا، على مدى الدهر، أمرالعقاب في جهنم.

"انتبه، إذن، لذاتك". اعلم أن في نفسك قوتين: قوة روحية واعية، وقوة شهوانية عمياء. ففي الأولى يوجد، بالطبيعة، ضبط النفس، وعلى الأهواء

---

<sup>٢٣</sup> كلمة ملكوت الله βασιλεία τοῦ θεοῦ بالعبرية מַלְכוּת הַאֱלֹהִים تعني مملكة ألوهيم وهو المصطلح الذي استخدمه القديس لوقا في مقابل ملكوت السموات βασιλεία τῶν οὐρανῶν بالعبرية מַלְכוּת הַשָּׁמַיִם الواردة عند القديس متى وهو المصطلح الأكثر انتشاراً في الأدب العبري. ونجد أن خطاب القديس متى موجّه لليهود لذا استخدم التعبير الأكثر شيوعاً وقرّباً من الذهنية اليهودية.

أن تتقاد لها طائعة. فلا تسمح مطلقاً للقوى العقلية التي فيك أن تصبح عبدة للأهواء وخانعة تحت نيرها. وأيضاً، لا تدع الأهواء تثور على العقل قط ولا أن تغتصب لذاتها التسلط على النفس. وبوجه عام، إن التبصر العميق في ذاتك سوف يهبك سبيلاً كافياً كي تتأمل الله<sup>(٣٤)</sup>. أي، إن إنتبهت لذاتك فلن ينقصك شيء في البحث عن خالق الكل، بل تمعن في ذاتك، كما في عالم صغير<sup>(٣٥)</sup>، وستدرك حكمة الخالق السامية. آمن أن الله غير منظور

<sup>٣٤</sup> يشترك القديس غريغوريوس أسقف نيصص، شقيق القديس باسيليوس، في هذا المبدأ قائلاً: [إن أردت أن تفهم الله، ينبغي أولاً أن تفهم ذاتك، من خلال تكوينك، وخلقك، وأيضاً من خلال عالمك الداخلي. انسحب وادخل إلى داخل نفسك، انظر داخل نفسك كما في مرآة، ميز خلقها وسترى أنك مخلوق على صورة الله ومثاله]. انظر: القديس غريغوريوس النيصي، خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مؤسسة القديس أنطونيوس، القاهرة، يونيو ٢٠٠٦، ص ١٠٦.

<sup>٣٥</sup> يقول كاليستوس وير: [وفقاً للنظرة الأرثوذكسية للعالم، فقد جَبَل الله مستويين للمخلوقات: أولاً المستوى "العقلي" و"الروحي" أو "الذهني"، ثانياً المستوى المادي أو الجسداني. وعلى المستوى الأول خلق الله الملائكة الذين لا جسد مادي لهم. وعلى المستوى الثاني خلق الكون المادي؛ الأجرام السماوية، والنجوم والكواكب السائرة مع الأنواع المتعددة من المعادن والنباتات والحيوانات. والإنسان وحده، هو الذي يوجد في كلا المستويين في آن واحد. فمن خلال روحه أو ذهنه الروحي يشارك في المجال العقلي وهو في هذا رفيق الملائكة، ومن خلال جسده ونفسه، يتحرك ويشعر ويفكر وأيضاً يأكل ويشرب ويحول الطعام إلى طاقة ويشارك بشكل عضوي في المجال المادي، الذي يسري في داخله من خلال إدراكاته الحسية. وهكذا، يقف الإنسان في قلب خليفة الله. ومن ثم يشارك في كل من المجالين العقلي والمادي. إنه، كما يدعوه الآباء، صورة أو مرآة للخليفة كلها، (أو بالتعبير اللاتيني *imago mundi*)، وهو "عالم صغير" *microcosmos* كل المخلوقات منجمعة فيه وكلها تلتقي فيه.

يقول أوريجينوس: [أفهم أنك تملك في نفسك، على مستوى صغير، عالماً ثانياً. ففك توجد شمس، ويوجد قمر، وتوجد أيضاً نجوم]. ولأن الإنسان عالم صغير، فإنه وسيط أيضاً. ومهمته المعطاة له من الله هي أن يصلح ويوفق المجالين العقلي مع المادي، ليوجدهما معاً، وليصير المادي روحياً، وليجعل كل القدرات الكامنة للنظام المخلوق تصير ظاهرة. وكعالم صغير، فإن الإنسان، إذن، هو ذلك الشخص الذي يتلخص العالم فيه. وكوسيط، هو الكائن الذي من خلاله يُقَم العالم لله. والإنسان قادر على ممارسة دور الوساطة هذا فقط لأن طبيعته البشرية هي بالأساس والجوهر، وحدة واحدة. فلو كان الإنسان مجرد نفس تسكن جسداً بشكل مؤقت، مثلما تصور كثير من فلاسفة الإغريق والهنود. ولو كان جسده ليس جزء من نفسه الحقيقية، بل مجرد قطعة من الملابس التي يخلعها يوماً ما، أو سجن يسعى أن يهرب منه. لما استطاع الإنسان بهذا الشكل أن يعمل كوسيط]. انظر: كاليستوس وير (الأسقف)، الملوكوت الداخلي، ترجمة د. نصحي

من خلال تأمّلك في نفسك، لأن النفس لا يحصرها مكان ما، إذ لا لون لها، ولا شكل، لكنها تُعرف بما تقوم به من الأعمال وحسب. وهكذا، لا تحاول أن تدرك الله بعينيك، بل بروح الإيمان، وليكن عندك إدراكاً روحانياً من نحوه. تعجّب من ذلك الفنان الذي ضم قوى نفسك إلى جسدك، بحيث تصل إلى أقصى أطرافه، وتجمع كل الأعضاء، مهما بعدت، في شركة واحدة فريدة. تفحص ما هية القدرة التي يستمدّها الجسد من النفس، وما هو الانفعال والتأثير الذي تتأثر به النفس من الجسد، وكيف أن النفس بدورها تقبل من الجسد كلاً من الحياة والألم. وتفحص أيضاً كيف أن الاستزادة من الأطلاع والتوسع في العلم لا تمحو المعارف السابقة، لكن الذكريات تبقى واضحة جليّة دون أن يعتريها أدنى تشوش أو خلل، وتبقى منقوشة في القوى العاقلة؛ التي هي النفس، كأنها محفورة على اسطوانة من نحاس. وكيف أنها عندما تنقاد لأهواء الجسد، تفتقد جمالها الخاص بها، وكيف أنها عندما تتطهر من عار الإثم، تأخذ في السعي، من خلال الفضيلة، للتشبهه بخالقها.

٨ - لاحظ، إن حسُنَ لك، بعد أن تأملت في خواص النفس وتركيب الجسد، وتعجّب من ذلك المهندس العظيم كيف أنه خلق الجسد ملائماً للنفس العاقلة. جبل الإنسان واقفاً مستقيماً دون غيره من سائر الحيوانات، حتى يعرف من شكله هذا أن حياته منبثقة من فوق، لأن ذوات الأربع جميعها تطرق بنظرها إلى الأرض وتزحف على بطنها، أما نظر الإنسان فهو

---

عبد الشهيد، بيت التكريس لخدمة الكرازة، القاهرة، أغسطس ٢٠٠١م، ص ٦٨-٧٠. وأيضاً: عدنان طرابلسي (الكتور)، الرؤية الأوثوكسية للإنسان (الأثروبولوجيا الصوفية)، منشورات النور، ١٩٨٩، ص ١٢٧-١٣٦.

مصوبّ أبداً إلى السماء، حتى لا ينشغل بأمر جوفه، ولا بالشهوات التي من تحته، لكن عليه أن يصبو، بكل أشواقه، للارتقاء نحو العلاء. ثم بعد أن وُضع له رأسه في أعلى جسده، وضع له فيه تلك: البصر، والسمع، والذوق والشم وكلها تجاور بعضها البعض. وهي وإن كانت محصورة كلها في مكان ضيق، فلا واحدة منها تعوق عمل الأخرى في شيء ما. فالعينان تحتلان المرتبة الأكثر علواً في المراقبة؛ حتى لا يعترضها عضو من أعضاء الجسد الأخرى عن إتمام عملها. ولكن بما أنهما نازلتين تحت الجفون، فهي مضطرة لأن تنظر إلى الأمام بسبب تلك الأهدب التي تعلوها. أما السمع فليس مفتوحاً، فهو يلتقط الأصوات من الهواء في ممرّ لولبي، كثير التجايف. وهذا التدبير هو نتيجة حكمة سامية، حتى يتمكن الصوت من أن يمرّ بلا عائق، أو بالحريّ أن يرن إذ يتخبط بتلك التجايف. وهكذا فلا شيء مما يحدث في الخارج يعود قادراً أن يقف عقبة في سبيل السمع. تأمل طبيعة اللسان، كيف أنه بسيط ومرن، ويلبّي بتحركاته المختلفة كل حاجات الكلام. أما الأسنان، وإن كانت تحسب من أعضاء الآلة الصوتية، إلا أنها دعامة قوية لللسان، وتستخدم أيضاً عند الأكل. فبعضها يقطع الأكل والبعض الآخر يطحنه. وهكذا، فإن أنت اعتمدت هذا الأسلوب اللائق لتفحص سائر الأعضاء كاستيعاب الهواء بالرئتين والمحافظة على درجة حرارة القلب، والجهاز الهضمي، وشرايين الدماء، فمن كل هذه الأشياء ستتيّن حكمة خالقك غير المدركة لدرجة أنك تقول مع النبي: "عجيبة هذه المعرفة، فوقي ارتفعت، لا أستطيعها" (٣٦).

"تأمل، إذن، ذاتك" حتى تتأمل الله، الذي له المجد والقدرة إلى دهر  
الدهور. آمين.

ترجمة

ريمون يوسف

مترجم بالجمعية اليونانية بالقاهرة

Raymond\_Y@alexandriaschool.org